الفصل الرابع عشر

وصل المحترم إسحق إلى أحد البيوت القديمة في بنيانها الموجودة في منطقة نائية معزولة.. ثم نادى قائلاً:

_ إبراهيم!

وأخذ ينظر في البيت.. يا إبراهيم!

فرأى الفتى إبراهيم وكان مستلقي على أريكة في غرفة ناحية المشرق ونظره إلى السقف غير أنه لا ينظر إلى شيء محدد.. وهذه الغرفة تطل على نهرٍ صغير بالخارج. تبسم المحترم لـمَّا رأه وأشرق وجهه.. ثم قال له:

_ سأدخل!

دخل المحترم ومشى ناحية الفتى ونظر إليه.. ولكن مازال بصر الفتى إلى الأعلى؛ فظهر القلق على وجه المحترم.. ثم سأله قائلاً:

_ منذ متى وأنت على هذه الحالة؟ تبدو شاحب اللون، وواضح أنك لم تأكل منذ فترة... سأُعد بعض الطعام ولكن عليك أولاً أن تستعيذ بالله مما حلَّ عليك من الكبر! هيا.. قل أعوذ بالله السميع البصير!

الظاهر على الفتى أنه في حالة من حالات الكبر والكبرياء.. قال المحترم في نفسِه وهو ذاهب يُعد طعاماً:

_ لو حدثته بكل شيء ما هو بميجب.. لأنه لا يبالي ولا يكترث لشيء.. فهو يتكبر على كل شيء؛ لأنه يشعر بمخلوقية كل شيء.. أي أن كل شيء أمامه الآن مخلوق وناقص وفي حاجة. حقاً إنه لا يبالي لشيء وما هو بذاهب عنه كبره هذا؛ إلا إذا استعاذ بالله السميع البصير! فهو تعالى الذي أمرنا بالاستعاذة به إذا ما حلَّ الكبر علينا.. والكِبرُ كأي شعورٍ آخر فينا.. مثل الرحمة والكرم والرضا؛ فأرواحنا جميعاً هي من روح الله الرحيم الكريم الرضا المتكبر ربِّ كل شيء وخالقه.

أعدَّ المحترم الطعام. ثم ذهب إلى الفتى ورفعه إلى صدره وقال له:

_ هيا استعذ بالله.. هيا.. قل أعوذ بالله السميع البصير.. هيا! إن الله هو من أمرنا أن نستعيذ به.. هيا إبراهيم!

فنطق الفتى بصعوبة كبيرة قائلاً:

_ أعوذ.. _وأخذ نفسَه وعل صعوبة_ أعوذ بالله.. أعوذ بالله السميع البصير!

فقال المحترم:

_ تعال لنأكل! أعلم أن الأمر به صعوبة.. لكن ما إن تبدأ حتى تزول تلك الصعوبة.

المحترم يتبسم وحاول أن يقول شيئاً وهو آخذه ليأكلا.. لكن أي كلام عند الفتى الآن؛ ما هو إلا سقم.. فانتظر حتى يكسر الحاجز ببدءه في الأكل.. وعلى الطعام أخذ الفتى يذكر اسم الله وما زال أثر الكبر عليه.. قال:

_ الحمد لله الذي يطعمنا ويسقينا من غير حول لنا ولا قوة.. يارب ارزقنا خير منه وأنت خير الرازقين! _ودع المحترم في سره بمثل ذلك_

قال المحترم:

_ شعور الكبر والكبرياء جميل.. من أجمل الشعور الذي أعرفه.. ولكن لا قدرة كافية لجسد الإنسان في أن يتحمله.

فقال الفتى:

_ نعم.. إنه شعورٌ جميل.. والله رحيم عندما أمرنا أن نستعيذ به.. ولربما تضرر أحدنا إذا استمر في البقاء عليه.. وإذا ما استعذنا بالله سبحانه؛ فإنه سيُعيذُنا.

قال المحترم:

_ وأيضاً أمرنا أن نستعيذ به من أجل التعامل مع الأخرين من الناس حتى لا ننفعل عليهم ولا نتحملهم.. والأكثريين من الناس لربما أساءوا وظلموا إذا ما حلَّ عليهم الكبر؛ لأنهم ببساطة لا يعلمونه.

قال الفتى وعليه غرابة:

_ إذاً هم لا يستمتعون بالكبر ولا يحاولون بلوغه؟_وبالمناسبة! الفتى لا يعرف أحداً من الناس غير المحترم.. وهو لم يتعامل مع أحد من قبل غير أبيه والمحترم.. وأما عن أبي الفتى؛ فإنه قد مات منذ مدة_

قال المحترم:

_ نعم! إن كثيراً من الناس لا يعرفون ما هو الكبر أصلاً .. وإذا ما حلَّ عليهم؛ فإنهم يظلمون ويسيئون.

قال الفتى:

_ وكيف للناس أن يظلموا ويُسيئوا؟

قال المحترم:

_ أوتدري يا إبراهيم كيف أنني أقول لك: إذا ما أحسست أني تأخرت كثيراً عن القدوم إليك؛ فهناك مخزناً صغيراً.. مخزن صغير مفاتيحه معلقة هناك _وأشار بيده في إحدى نواحي البيت_.. فإذا ما تأخرت؛ تفتحه وتأخذ ما فيه.. وفيه خطاب تعرف به ما الأمر.. لأنه لربما حضرني الموت قبل أن أُسلمه إليك؟

قال الفتى:

_ نعم أذكر أيها المحترم.. وأذكر أنك قلت لي: وإذا ما أتيت إليك؛ فلا تسألنى عن ذلك المخزن وما فيه! وإنما ذكرته لك في حالة أنك أحسست أنني تأخرت كثيراً عن القدوم.

قال المحترم متبسماً:

_ لقد عملت بالوصية ولا تزال لا تسألني عنه. وبالمناسبة! فهذه كانت وصية من أبيك رحمه الله؛ أنه إذا ما أحياني الله وأحياك إلى ميقاتٍ تبلغه؛ أن أسلمك ما في المخزن.

قال الفتى مبتسماً ويا لجمال تبسمه:

_ أولم يحن الميقات بعد؟

قال المحترم مبتسماً:

_ لربما قد اقترب.. اقترب كثيراً.

فقال الفتى وكأنه مهتم:

_ جميل!

المحترم ينظر إلى الفتى.. ثم قال له:

_ سألتني منذ قليل: كيف للناس أن يظلموا ويسيئوا؟

قال الفتى:

_ نعم سألتك! سألتك بعدما قلت لي إنهم لا يستمتعون بالكبر.. وبسببه هم يظلمون ويسيئون.

قال المحترم:

_ الناس يظلمون؛ بمحاولة أخذ ما ليس بحق لهم.. ويظلمون أنفسهم بجعلها تُقدم على الظلم وهي أسمى من فعل ذلك.

قال الفتى:

_ أولا يخافون أن يُحاسبهم الله على ظلمهم؟ أولا يخافون أنهم لربما ماتوا في لحظتهم ولم يستغفروا الله على ذنوبهم؟

المحترم ينظر إلى الفتى ولا يستعجب من كلامه عن الاستغفار؛ فالفتى عنده أن الناس مؤمنين بالله ويشعرون بأنفسهم وليسوا تائهين.. قال المحترم:

_ الناس لا تؤمن بالله العظيم.. أكثرهم لا يؤمنون بالله العظيم إطلاقاً.. والقليل الباقي معظمهم لا يؤمنون به ولا يذكرونه إلا عند الكرب والشدة.

الكلمات وقعت على الفتى تُزلزله.. ثم قال مستعجباً ومستغرباً:

_ كيف لا يؤمنون بالله؟ كيف ماذا؟!! _لا يكاد يستصيغ السؤال_

حاول الفتى استصاغة ذلك؛ ولكنه لا يُستصاغ له... وحاول جعله يستقيم عنده ولو لِلمحة لكنه لا سبيل! ثم قال المحترم؛ فأخذ الفتى يستمع وذهوله لا يزال قائماً:

_ أنت تعلم كيف أن الله رحيم.. وأنك دائماً القول بأنك ما تأتي بحركةٍ؛ إلا رأيت كيف هي رحمة الله في ذلك، وكيف أنه قائم عليك، وقبل ذلك تعطفه وقوله بأن تكون.

قال الفتى :

_ بالطبع إن الله رحيم وهو معي أينما كنت.. أرآه ويراني.. أرآه لأنه هو الظاهر الذي لا شيء أظهر منه.. وهو أيضاً الباطن الذي لا شيء أخفى منه.

قال المحترم:

_ من هنا تماماً كان اغترار الناس بالله الرحيم! اجترءوا على فعل المعاصي والذنوب حتى اعتادوها ولم يستغفروا.. بل تمادوا وتطاولوا حتى نسوا الله وجحدوا رحمته مع كونها محيطة بهم.. والتي لولاها لخسف الله بهم ما بين السماء والأرض؛ لأنهم افتروا الكذب وخرقوا لله ما خرقوا من الصفات وقالوا عنه كل مالا يليق.. وتطاولوا وقالوا بأنه ليس موجوداً.. وهذه هي حالة أكثر أهل الأرض.

قال الفتى والحزن على وجهه والضيق حقاً في قلبه:

_ أهذه حال أهل الأرض؟ إنهم لظالمون! وكيف لك أن تعيش معهم؟ ألا تخاف أن ينتقم الله منهم انتقاماً أليماً بسبب ظلمهم، فترى كم عذاب الله أليم، فتُصعق ميتاً لرؤية العذاب؟

وإني لم أكن أفكر في عذاب الله.. ولكن لَمَّا قلتَ لي ذلك؛ فإنني لا أستطيع حقاً التصور.. فآآآه من عذاب الله.

قال المحترم:

_ إني أحاول أن أصلح منهم ما استطعت.. وهناك كثيرٌ من الناس _فقط في زماننا هذا[1]_ يحتاجون منادة واحدة فقط حتى تجدهم أفواجاً يتوبون إلى الله ربهم ويؤمنون به.. وأما الباقى فأدعوهم بكل شيء؛ وأعلم أنهم لن يؤمنوا بشيء.. ولكن عليَّ أن أُبين أمرهم للناس حتى لا يكونوا فتنة لهم.

---

1 _ بالمناسبة! زماننا هذا هو آخر الأزمنة، ولا يُعلم أسيُقيم الله الساعة _ يوم القيامة _ قبل أن أُنهي ما ابتدأته في هذه الرواية أم بعد دقيقة من الآن أم ماذا هناك حقاً؟!

قال الفتى على حسرته:

_ أولا تلومهم أنفسهم فينتهوا.. فيعودوا غير متحملين وطالبين من الله أن يتوب عليهم ويرحمهم وإلا كانوا خاسرين حقاً؟

قال المحترم:

_ هؤلاء الناس قد نسوا أنفسهم.. ثم نسوا أن الشيطان على كل واحد منهم.. على كل واحد منهم يُزين لهم أعمالهم وأقوالهم.. وإن حدث مرة ولامتهم أنفسهم؛ أقعد الشيطان لومهم.. أقعد لومهم بأنهم قد أحسنوا صُنعاً وقولاً.

قال الفتى وعليه غرابة ويحاول التجميع والتذكير:

_ الشيطان.. أوتعني إبليس؟!

ظهرت على وجهه المحترم ابتسامة.. فهو يعلم أن الفتى لا يعرف إلا القليل جداً عن إبليس.. ثم إن إبليس وجنوده لا طاقة لهم إطلاقاً بالفتى.. فكم الفتى مُقرب من ربه!

أخذ المحترم ينظر ويمعن في وجه الفتى إبراهيم، ثم تبسم أكثر، والمحترم يظن في الفتى أنه من الذين اصطنعهم الله لنفسه؛ فقال مبتسماً:

_ كم وجهك منير يا إبراهيم! ما شاء الله على هذا الجمال.

تبسم الفتى ضاحكاً وأحال بصره جانباً من الحياء.. ثم قال:

_ وأنت وجهك منير أيها المحترم إسحق.

فقال المحترم:

_ بل أنت الأنور.. ما شآء الله.

تبسم الفتى أكثر.. ثم قال المحترم:

_ إذاً أنت لا تعلم عن إبليس؟

قال الفتى:

_ كلا! أعلمه.. أخبرني أبي عنه وعن أنه أبَى السجود لآدم مع الملائكة، وقد كان يُعد واحداً منهم.. وأنه قال إجابة لِما لم يكن مع الساجدين؛ أنه خُلق من نار وخُلق آدم من طين.. فقلص وزعم كاذباً أن أسباب السجود هي في النار والطين.

أبدى الفتى على وجهه أن هذا ما يعلمه.. فقال المحترم :

_ نعم تماماً! هو كذلك.. فقد أمره الله بالسجود لآدم مع الملائكة فهو واحداً منهم؛ فأبَى! ومن شدة حماقته أنه ركن إلى زعم باطل؛ وهو أن الله خلقه من نار وخلق آدم من طين! فكفر الشيطان بالله على الرغم من أن الله كان يكلمه.. ومن ثم طلب إبليس من الله أن يُبقيه حياً إلى يوم القيامة وسوف يُريِّـه كيف سيصنع بهذا الإنسان الذي كرمه عليه، وما الذي سيفعله به وبذريته؛ إلا قليلاً منهم.. فأولئك لا يستطع معهم سبيلاً.

وكان إبليس يعلم بطبائع ما على الأرض من دواب قبل خلق آدم والذي سيجعله الله على الأرض خليفة له يفعل مثل أفعال الله؛ لأنه فيه من روح الله.. وكان ظن إبليس أن هذا

الآدمي ماهو إلا شبيه بما على الأرض من دواب ولن يغنيه تكريم الله وتفضيله له.. بل سيطول عليه الأمد وسيسئم من تكريم الله له وتفضيله إن كان أصلاً يعلم أنه مكرم ومفضل.

قال الفتى:

_ وكيف لـ للعين بكل حماقته تلك أن يصدقه الناس؛ فهو لا يستطيع أن يأتي بجملة يوسوس بها ويُظن فيها الصدق أو أن لها أن تُعقل كم قلتَ؟

قال المحترم:

_ يأتي الشيطان للإنسان ومن قابليته لكل شيء.. من قابليته للحب والكره.. والأمن والخوف.. والعز والإخلاص لشيء.. والاتباع للرب والذي هو مفطور عليه الإنسان. ويأتيه أيضاً من خلال الشهوات بأنواعها.. فيتخذه الناس ولياً لهم ويستمعون له.. ثم يقولون على الله كل ما لا يليق.. فيفعلوا المزيد من السوء والظلم حتى يُكبوا كباً في جهنم جميعاً.

قال الفتى مستغرباً لكل ما يقوله المحترم عن الناس:

_ أوليس الأولى على الناس أن يتخذوا الله ولياً لهم بدلاً من أن يتخذوا الشيطان اللعين؟

قال المحترم مستغرباً هو الآخر:

_ الأولى على الناس أن لا يكفروا بالله وما من شيء في هذا الكون يدعوا إلى الكفر بالله!

قال الفتى:

_ وماذا يقولون إن قلت لهم أنهم مجرد ماء.. مجرد مني أُخرج بعد تمتعٍ يُصبُّ صبَّـاً منهم؛ فيخرج منه إنسان يتكلم؟

قال المحترم:

_ هم لا يصدقون ذلك! _ثم ضحك وأخذ يتحسر على تكذيب الناس لمثل هذا وهم موجودون منه_

فقال الفتى إبراهيم:

_ أولا يصدقون بأنهم مخلوقين؟

قال المحترم:

_نعم! هم لا يصدقون ذلك.. ولوقلت لهم بأنهم مخلوقين؛ لوجدتهم يقولون بأن تدع عنك هذا الضلال.. فماذا في الأمر؟ إنسان كان في رحم أمه ثم ولد.. وها هو هناك! ما الذي تُريده منه؟ وما الذي تُريد أن تقول؟

قال الفتى:

_ يبدو أنهم راضون بكفرهم رضاً تاماً ولا يريدون أن يغيروا ما في أنفسهم وما يهوونه!

قال المحترم:

_ أولا تعلم أن اللعين قد اختار الكفر على الإيمان والله هو من يكلمه؟ ولو قلت لهم إنهم مخرجون أحياء مرة أخرى بعد موتهم؛ لقالوا: أولم نقل لك بأن تدع عنك هذا الضلال؟ كيف للعظام والتراب أن يخرج أحد منهما حي مرة أخرى؟!

قال الفتى:

_ يا إله الكون.. إنهم مساكين! أولا يعلمون أنه ما من حجة فيما قالوا؟

فهل ياتُرى! إن كانت هناك صعوبة في إحياء أحدهم وخلقه؛ أستكون في البدء قبل أن يُعرف ويُرى أم إن الصعوبة ستكون بعد أن عُرِف وكان؟

أم أن الصعوبة كلها ستكون في إيجاده وإعادته من شيء بقي منه1وأنه لن تكون هناك أية صعوبة إذا وجد في أول الأمر من الماء والمني الذي لا يُمت لجسده بصلة ولا ينتظر منه شيء؟!

أم أنه ليس هناك من إعياء أو صعوبة في الخلق؟ وأنه ما هناك من صعوبة على الله في أن يعيد الخلق حتى وإن انتهي أمرهم إلى حجارة أو حديد أو انتهى أمرهم إلى شيء مهول.. لا توجد صعوبة لأن الله لم يُـعِيه أن خلق الأولين.. ولا يُـعِيه كما يرى الناس أنه لايزال يخلق ويُخرج خلقاً جديداً من كل شيء في الآخرين.. وهكذا هي إعادة الخلق.

استمع المحترم إلى الفتى وقد أعجبه كلامه.. ثم قال المحترم:

_ أترى مع كل ما قلته من الحق والصدق؛ فإنك سوف تجد الكثير من الناس لا يزالون يتبعون الكذب والمكر ويستظلون تحته ليتمتعوا قليلاً بأهواءهم المريضة.. والأمر قد وصل بالناس يا إبراهيم؛ إلى أن يزعموا أن كل شيء قد انحدر وخُلق من شيء واحد. _ذكره المحترم ليه ليرى رده_

قال الفتى:

_ هذا زعمٌ صحيح.. فالله الواحد؛ هو خالق كل شيء.. لكنه تعالى لا يشبهه أي شيء؛ فأي شيء ليس مثله.

ضمَّ المحترم شفتاه على بعضهما إلى داخل فمه؛ فقد فُجئ برد الفتى هذا؛ فقال وشيء من التبسم علي وجهه:

_ هذا صحيح.. ولكنهم لا يظنون ذلك.. بل إنهم يزعمون أن هناك شيء واحد في أول الأمر بعيداً عن الله.. ثم من هذا الشيء الواحد جاء شيء آخر.. وهكذا إلى أن تصل إلى أن كل شيء قد نزل عن شيء آخر قبله.. فهناك مثلاً عدة حيوانات! يزعم بعض الناس أن أصلها وأولها شيء واحد.. ثم بدأ هذا الشيء يخلق من نفسه أشياء أخرى إلى أن وصل الأمر إلى ما نراه.. وعلى هذه الحال؛ صار الأمر في السموات والأرض.

قال الفتى ومال برأسه إلى الأمام وكأنها ستقع على الأرض مذهولاً:

_ أوهذا حقاً ظن يظنه الناس أو بعضاً منهم؟ طيب.. لماذا قالوه في الأصل أصلاً؟!

قال المحترم:

_ لأنهم نظروا إلى أحوال الناس وإلى ما يحدث بينهم وفيهم؛ فحسبوا أن الناس كلهم مخدوعون بسبب أن لهم إيمان ودين.. ولا يهم ما الذي يؤمن به الناس؛ فما هو جميعاً إلا سواء.. وما هو جميعاً إلا أساطير حدَّثها وحكاها من سبق وخيال أورثوه لمن بعدهم.. وما يقوله

الناس عن خالق لهذا الكون؛ ما هو إلا المستحيل، ولكن الناس من قلة علمهم وسفاهتهم صدقوا القول بوجود خالق خلق كل شيء.

قال الفتى وعلى وجهه الذهول:

_ سبحان الله! كيف يُصدقون ذلك؟

قال المحترم:

_ صدقها من هو مفتون ليس عنده إيمان متين.. فاتبعها منجرفاً وراءها لا يستطيع تحملاً من كبح نفسه أكثر، وأن جميع السبل سوف تنفتح أمام النفس لقضاء ما تهواه وتريده.

قال الفتى حزيناً ضائق الصدر:

_ طيب.. إن كان الأولين من الناس قد ظلموا ظلماً كبيراً بكذبهم على الله، فخرقوا لله ما خرقوا من صفاتٍ وأفعالٍ، فابتدعوا أدياناً وأحزاباً كاذبة مفترية؛ فإن الإلحاد هو أشد ظلماً.. لأنه قد محى ويمحو أي أثرٍ وبقية باقية مما فطر الله عليه الناس، والتي لم تستطع الملل والأحزاب الأولى أن تُزيله أو أن تقربه. وأن الإلحاد قد أسن وابتدع أمثل طريقة لإخراج الناس إلى الظلمات.. إلى ظلمات النفس حالكة السواد.. وأن الإلحاد قد بسط وفرش الطريق ويسره كثيراً لكي يعمل الشيطان دون إعاقة أو عقبة.

قال المحترم راضياً عما قاله الفتى إبراهيم:

_ أحسنت يا إبراهيم.. أحسنت! ثم إن هناك شيء آخر؛ وهو أنهم إن كانوا يطعنون ويهدمون الدين؛ فإنهم بذلك يهدمون معتقدهم بأيديهم؛ لأنهم هم أصحاب دين.. هو دين الجهلاء التائهين.

ثم أكمل الفتى إبراهيم قائلاً والحزن مازال مخيماً عليه:

_ أريد أن أعرف.. كيف صدق الناس كل الكذب؟ فهل كان أحد منهم شاهد وواقف عندما تحول أحد المخلوقات إلى مخلوق آخر.. فشهد على ذلك؟

وهل كان واقفاً يسجل في كتاب كيف تم أول تحول؛ فأخذ يسجل ذلك، وأخذ يستمع من المخلوق الذي سيتحول كيف اهتدى إلى ما سيتحول إليه.. فسأله الذي يسجل كيف أنه تم وكان؟ فقال له خافتاً صوته بأن عليه أن لا يسأله مثل هذه الأسئلة وأن لا يتسسب في فضح أمره! وقال له أن عليه أن يكتم عنه عدم قدرته في أن يجيب على مثل تلك الأسئلة وأن لا يتكلم بمثلها مع أحد حتى لا تُعرف وتُشاع بين الناس.. وأن على الناس أن يتقبلوا فكرة التحول بين المخلوقات.. وعليهم أيضاً أن لا يتبعوا الضلال الذي يقول بخالق رقيب شاهد مالك ليوم الحساب.. يوم يُحاسب كل أحد على كل صغيرة وكبيرة مما قدمت يداه. وأن المخلوق الذي تحول وعد الذي يُسجل؛ بأنه سُيعطيه ويرسل إليه ملابساً وأموالاً كثيرة إذا ما كتم عنه كل تلك الأسئلة.

ضحك المحترم بصوت عالٍ على الطريقة التي أنهى الفتى بها كلامه.. ثم قال المحترم بعد هنيهة من الضحك:

_ بل هم قد اعتمدوا في زعمهم هذا على أن ما على الأرض من دواب شبيهة في تراكيبها الداخلية مع بعضها.. ويوجد بين بعض الدواب ما هو شديد الشبه.. وقالوا أنه إذا ماكان الأمر كذلك فلا بد من أن يكون هناك تنقل وتحول من إحدى الدواب إلى دواب أخرى أذكى منها.

وبالمناسبة! هكذا جاء الإنسان عندهم وأصبح له كل ذلك الذكاء.. فهو آخر الدواب في التنقل والتطور.. وهكذا هم يفسرون ذكاء الإنسان وقدرته على البيان والتكلم خلافاً لباقي الدواب.. يفسرون ذلك بالتنقل والتطور ومرور الوقت والحاجة إلى النجاة والقدرة عند الدواب الأولى على ابتكار الصفات والسمات وجعلها فيهم، ومن ثم عقدهم الاتفاقيات بينهم جميعاً وبين الأرض نفسها، وبينهم وبين البحار والغابات والصحاري وغيرها!

ومما يستخدمونه لتفسير تنوع الحياة؛ هو قدرة الدواب الأولى على معرفة أنها وصلت إلى حد التحول فتتحول.. ومعرفتها السبيل إلى أي شيء ستتحول!

وأنهم اتخذوا من معرفتهم بأجزاء وتركيبات المخلوقات سبباً للقول بأنه ما هناك من خالق.. فالأمر عظيم! فكيف _إذاً_ هناك خالق لكل تلك العظمة والجمال والقدرة؟!
يا إبراهيم!

فقاطعه الفتى قائلاً:
_ أوليس الله هو الذي قال بأنه هو الدهر.. أي أن الله هو الدهر.. وأنه هو من يُقلب الليل على النهار ويُقلب النهار على الليل؟ أولم يقل الله ذلك أيها المحترم؟

قال المحترم والنشوة تكاد أن تجعله يطير:
_ يا حُبي أنت !

هذه هي الكلمة التي كنت سأقولها عندما قاطعتني يا إبراهيم.. نعم! الله هو الدهر.. وهو القائم على كل كائن وكل مخلوق.. قائم عليه يأخذ بيده ويرشده. والملحدون يُثبتون وجود الله في محاولتهم إبطال وجوده.

وضع الفتى إحدى يديه على وجهه وأمسك به.. ثم قال:

_ أوحقاً يرضون على أنفسهم أن يكونوا كما قالوا؟!

فالأولى بدلاً مما قالوه عن الله وعن عدم وجوده؛ أن يؤمنوا ويصدقوا أن الله خلق كل أحد وأنه هو الذي ابتدعه وجعله.. وليُشغل فكره وقلبه بذلك حتى يشعر وكأنه سيذوب ولا يستطيع تحملاً من كل تلك العظمة والحب الذي عند الله في أن يخلقه. _ تكلم الفتى ووجهه كان كله منطقاً لكلامه_

والمحترم مازال ينظر إليه؛ قال:

_ إبراهيم! هل مازحت ربك من قبل؟!

نظر الفتى وأخذ يتسبم وقد انشرح قلبه كثيراً:

_ أنا لا أكف عن ممازحته! _ثم أخذ الفتى يضحك بوجهه المنير هذا_

تمالك الفتى نفسه ثم قال:

_ أنت تعلم أيها المحترم كيف أن الله فضل بعض الأوقات على بعضٍ لمزايا فيها.. وفضل بعض الليالي على بعض لمزايا فيها.

كنت مرة في إحدى هذه الليالي.. وهي ليلة سلام في سلام.. سلام غير عادي.. فأخذت في التسبيح أمداً بعيداً حتى أحسست أني بين يدي الله تعالى وهو أمامى.. وكأني في يوم القيامة؛ فصار قلبي مفزوعاً وكدت أن أغيب عن الوعي مصعوقاً.. ثم تذكرت كيف أنني كنت أمازحه؛ فازداد فزعي.. وحاولت بكل الطرق أن أخبر الله سبحانه أن يتداركني قبل أن انفطر؛ لأنني عبده ومخلوقه وأنه هو الرحيم العفو الطيب.. ثم سجدت على الأرض هرباً من الله إليه.. ولولا أن تدركني ربي؛ لانفطر قلبي في هذه الليلة.

المحترم يبدو عليه الذهول والتعجب الكبير من الفتى.. وراحة في قلبه إذا ما نظر إليه.. ويبدو أن الفتى فعلاً مُلقاة عليه محبة من الله.. ثم واصل الفتى قائلاً:

_ وماذا عنك أنت أيها المحترم.. هل مازحت ربك من قبل؟!

فقال المحترم:

_ مازلت أمازحه! حيث أنني أتوقف وأتفكر في أسماءه وفيما قاله عن نفسه وفي قدرته.. وأنه قادر عليم، ثم أعي وأفهم ما قاله الله؛ فينشرح صدري كثيراً.. ثم يُصيبني الذهول.. وما إن يُصيبني الذهول وينشرح صدري؛ آخذ أمازحه وكيف أنه قادرٌ رحيم ودود قريب بـرٌّ طيب.

ومرة حدث معي أني كنت في غرفتي بين النائم واليقظان.. فأتاني آتٍ وقعد عند رأسي.. ثم عرج بي إلى السمآء وسمعت صرير الأبواب فيها تُفتح.. وأحسست بأني تخطيت السماء الأولى.. ثم عرجت إلى السمآء الثانية وهكذا.. ثم أحسست أنني وصلت إلى أني بين يدي الله؛ فأخذت أريد أن أنظر؛ إلا أفقت ورأيت أنني مازلت في الغرفة تآئه بين النائم واليقظان.

انتهى الحديث بين المحترم والفتى.. ثم ذهب المحترم ليحضر شيئاً ما.. وعمد الفتى إلى سجادة وجلس عليها على ركبتيه وأمامه أجزاء من كتاب الله على مسند؛ ففتحه وأخذ يقرأ.. ثم خرَّ الفتى برأسه إلى ذقنه وأخذ في التفكير والتسبيح.

جاء المحترم وفي يده أشياء.. كتاب الله، وورقة مطوية يبدو أنها رسالة.. ويبدو أن هذا هو ما كان يحتويه ذاك المخزن الصغير! نظر المحترم إلى الفتى؛ فوجده جالساً على تلك السجادة يسبح ويفكر، والمحترم معتاد منه على ذلك.. ثم عمد المحترم إلى أريكةليجلس عليها.. وأمسك كتاب الله وقَـبَله ثم أخذ يقرأ فيه.. وبعد حين! انتبه من قرأته ونظر إلى الفتى؛ فوجده مازال على جلسته دون تغيير؛ فلم يُرد أن يقطعه عن تسبيحه؛ فرجع إلى قرأته.. وبعد مدة! نظر إلى الفتى مرة أخرى.. الفتى من عادته أنه إذا أطال التسبيح؛ أتى بحركة حتى لا يقلق المحترم.

اعتدل المحترم في جلسته.. وقبَّـلَ الكتاب وأغلقه.. ثم استعد للوقوف وقال بصوت هادئ قبل أن يقف:

_ إبراهيم ! لا أريد أن أقطع عليك تسبيحك..

إلا أنه لا شيء ! فوقف المحترم ومشى نحوه.. وتوقف عند رأسه وقال:

_ إبراهيم !

ووضع المحترم يده عليه؛ فخرَّ واقعاً.. فأدركه المحترم بخطفة منه، وجعل رأسه على صدره.. وإذا الفتى قد مات!

ضمه المحترم إليه بشدة ثم أخذ في البكاء وانذرفت الدموع حتى وقعت على وجه الفتى الميت.. وألصق المحترم فمه برأس الفتى وهو يبكي.. ثم أخذه في حجره وضمه إلى صدره وأخذ يقبله على بكاءه ويقول:

_ أيها الطيب الجميل !

ثم ذكر المحترم ربَّـه وكأنه يبكي بين يديه والفتى في حجره ولا اعترض.. فقط الفتى قد مات يا رب!

* * *